لهيب الثلج

حسن شوتام

الكتاب : لهيب الثلج (قصص قصيرة)

المؤلف : حسن شوتام

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع : ١١٦٧٠ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 448 -3

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



لهيب الثلج

قصص قصيرة

حسن شوتام

قبل القصّ

ليس هناك أجمل وأصدق وأبدع من كتابة الهامش ؛ في الهامش ينكمن التفرد وتنحسر دائرة الكتابة في رحم بلورة الخصوصية. من هذا المستوى انكتبت تجربة القاص حسن شوتام.

وللحقيقة والصدق فقد اكتشفت مع هذه الإضمامة القصصية قاصًّا مغربيًا متميزًا ومتألقًا ، يحفر مجراه الحكائي الجميل الصامت بيراع لغة منتقاة بصرامة شعرية فائقة وبطريقة سردية تلتئم في بنيتها كل الوحدات والأقانيم الضرورية التي تشي عن هاجس دفين في ذهنية حسن شوتام ينطلق أساسًا من قاعدة مجاراة رواد القصة القصيرة في المغرب وليس الإذعان لإغراءات مجانية النشر وما تزرعه من مخادعات وحافات يسقط فيها الكثيرون.

أخيرًا ، هنيئًا للمكتبة العربية بهذا الإنجاز القصصي الرائع للكاتب الواعد حسن شوتام.

عبده حقي

قاص وروائي مغربي

لهيب الثلج

من ورمٍ خبيثٍ أتلف العين، وبعدها الدماغ؛ ماتت "هنو"، أضحت أختها "حادَّة" وحيدة، تَجْرِشُ الحسرة كل يوم، رهينة الصمت والوحشة... الأقارب؟ بعد مراسيم الدفن أثارت نِعالهم غبار المقبرة، بدَّدته الرياح وتفرقوا كيما يستأنفوا انجذابهم إلى الكدح فالهلاك.

كوخها التابوتيّ هذا الصباح رَفّهَهُ البياض، دَاخِنَتُهُ بالكاد تلفظ ما بجوف المدفئة من غبن وسواد، ربما "حادَّة" قرّرت خرق إضرابها عن الطعام! دقائق فقط، تُخلخل باب كوخها العتيق، رغم الوهن تدفعه، فقد نالت منها النكبة، وما عادت قادرة على فتح باب علقت به نفثات من ثلج يناير!... أخيرًا تستعين بقضيب من حديد، تغرس نصفه بين حافتيه، وما فضل تمنحه طاقتها مزيحة في الاتجاه المطلوب، وبغمغمة بربرية جافة، يستسلم الباب متمايلاً أمام رغبة

لجوج في معانقة الحياة... وجه شاحب... قدمان حافيتان مفلطحتان تغلفهما طبقة سميكة داكنة من الجلد الجرانيتي، تعفيها من انتعال خُفّيها، حتى وهي تقصد حظيرة المواشي، متجاهلة لسع الثلج، تسوقها هذه الحاجة للاجتماع! كيف لا والفراغ يأكل جسدها كل يوم، وليس من أحد تسكن إليه، ويعزِّي نفسها، غير بقرة ناتئة العظام، وخمس دجاجات تقرقر بصوت أشبه بالنحيب!

ألقت "حادة" نظرة ضائعة على الزريبة، اقتربت من البهيمة مسَّدتْ جلدها الأغبر، فيما أنشأت الدجاجات تنقر بخفة ما دفعت من روث... وقبل أن تغادر المكان، تفحّصت العظام البارزة، وتنهّدت عاقدة حاجبيها، كمن استعادت تيقظها وتفاعلها مع المحيط بعد طول شلل وجمود، ثم جرجرت بصوت مبحوح: سأملأ هزالك بالكلأ لما ينحسر الثلج!

خلال الأيام التالية، أثلجت الدنيا بكثافة، حتى بات الخروج من الأكواخ صعبًا، ما عاند أحد برودة الطقس، خلا ثلة من النساء، أُجبرن على حمل أوعية طلبًا للماء، أما

الرجال فمقرفصون عند المدفأة، ينتظرون رقصة الشمس، ليعاودوا انتظامهم التسلسلي أسفل كوات المنازل ويستمتعوا بلفافات محشوّة همزًا وتبطّلاً!

حبيسة البيت ظلت "حادة"... بين الفينة والأخرى، تخفّ إلى الزريبة وبين يديها الخشنتين حزمة من عشب يابس، أو حفنة من الحبوب، والأمل الكبير في انحباس الثلج يتعاظم يومًا بعد يوم، لكن هيهات فقد تواترت الليالي بطيئة، منهزمة أمام فضاء ناصع، وحده القرّ تعاظم مستويًا على نعيب رياح غاضبة، اخترق المنافذ... ثياب "حادة" المهلهلة، ارتقى عظام قفصها الصدري، ضعضع دفئه النسبي، ثم خرج من ممرق آخر، حاملاً إلى آذان العابرين تباشير السعال والأنين.

حُمّت "حادة" وانتكست من جديد، رفعت عينيها المعمشتين إلى السقف، كان قاتمًا، فأربكها السواد، أشاحت، دوار شديد أصابها، أحّت، بصقت تحت الحصير، شدّها قشة برسيم... "لو يأتي ويكسرها، يباركها لتأكلي

حتى الشبع!"

انتظارًا انتظرت "حادة" بزوغ الشمس ، وفي إحدى الصباحات ، تناهى إلى سمعها صوت كالخرير... ولما دكّها اليأس والبياض الأبدي ، ظنّت أنه الطّنين ، فتجاهلته ، مكتفية بنظرة خاطفة مرّرتها على المكان الندي ، ساعتئذٍ ، لاحظت هباءً دقيقًا يمزق العتمة ، فركت عينيها... كان خيط الشمس واضحًا هذه المرة... لقد انحسر الثلج!

من فرط المفاجأة ، قفزت حادة ، اهتزّ خاطرها ، والتبست عليها المشاعر ، سحبت دفّة الكوّة مانحة نسيم الصباح وجهًا متغضنًا وشمته سنوات الاحتراق... إنه العراء يناديكِ يا سليلة الأطلس الكبير الشرقي ! قرون الأيل تتحدى أنياب محشّك ، فاكشفي عن ساعديكِ وتمردي!

تسمّرت "حادة" أمام الكوة متشبثة بالقضبان الصدئة ، رنّمت لحنًا أمازيغيًا حزينا ، وأخذت تتأمل المنازل التابوتية التي تبكي فقدها للأنس والصحبة ، بعد أن سرقت الشمس كل الأجساد ، لتدفئها من جديد.

عاد بها اللحن إلى أيام مجيدة ، ملؤها الخصوبة والنشاط ، لحظة كانت تحمل حزمات ضخمة على ظهرها ، صاعدة عقبات البلدة دون حوقلة أو تمايل... مرّت وجوه أمامها بيّنة وقد اتقدت الذاكرة؛ فاضمة ، احساين ، اعبي ، باسو ، هنو... سلسلة من القسمات البائدة شلّت حركتها ، بيد أن اللحن ماانفكّ متواصلاً يربطها بالحياة ، سرعان ما عرج بها إلى الحظيرة ، والورطة الكبيرة التي حملتها على القيام رغم التعب: الهزال والكلأ!

عندما دفعت حادة الباب الخشبي ، كانت البقرة تتمرّغ على جنبها المعدودة عظامه ، والمخاط يسيل من أنفها غزيرًا أصفر بلون الموت... في وَجَلٍ تهاوت الفلاحة بقربها ، تتفحّص بيدين مرتعشتين الدابة المترنحة ، كان هزالها هذه المرة مخيفًا ، ينبئ بالنهاية... وقفت "حادة" معتمدة ركبتيها والخوف يمتص قواها. إلى ركن كُوّمت فيه أكياس مهترئة جرّت قدميها ، سحبت واحدا ، ثنت فوهته لتبلغ ما تبقى في القاعدة من علف ، وضعته عند رأس البهيمة ، ثم خفّت إلى

الداخل محضرة وعاء ماء... حاولت إنهاض الدابة فما تمكنت ، أنّى لها ذلك وقد أُنهكت وشاخت قبل الأوان ! ضاعت "حادة" فيما يشبه البحث والتفكير ، معتقدة ألا مناص من شدّ أزرها... حسبك "حماد" إنه أقرب ملاذ ! هكذا حدثتها نفسها المضطربة ، فهرولت قاصدة بيته... طرقت بابه القصديري فما فتح ، قرعته بشدة وما سمع ، نادت عليه فأزاح المترسة عن الباب ، كاد ينخلع لما جذبه!

– حادة؟

نطق اسمها كمن رأى وجهًا ضاربًا في الغياب ، ومعه زفرة كريهة ، لم تتعرّف المُستنجدة عناصرها الكحولية... إنه "احماد" عربيد القرية... ضخم الجثة ، أصلع ، على وجهه سيماء البلادة والرعونة... هي سمعت عن أخباره ومغامراته لكن ما هجر أبدًا بالها اقتراحه الزواج بها ، بعد وفاة زوجها ! وفيما كانت تشكي خطبها وحاجتها ، حاثة إياه على الإسراع ، غرق "احماد" في استيهاماته وتحرّقه... ما ألذ الأجساد المذعورة! ثبّت نظرات ثملة على مناطق محددة من

جسدها ، فاندفع الدم إلى عروقه حارًا ، ساخنًا ، ثم أمسك يدها... فحّ قائلاً:

– هدئي من روعك ، ستمضي الأمور مثلما رغبتِ ، الجو بارد في الخارج ، سأزكم إن خرجت بهذه الثياب الخفيفة... تعالي!

بحذلقة جرَّها إلى الداخل ، أترس الباب ، فسرت حرارة غريبة في جسد "حادة"... إيه.. كم أُصقع هذا الجسد ، كم أُلغي وأُعدم وامْتُصّت سخونته في البيداء!

ما انتظر "احماد" جلوسها ، أحاطها من الخلف بذراعيه ، ثم همس في أذنها بصوت دافئ:

– فلنتزوج "حادة" ، أنا وأنتِ وحيدان ، أيرضيكِ أن أبقى عازبًا وأنتِ مهجورة إلى الأبد ؟ ! اقبليني وسأصير لكِ عبدًا... أحبكِ... أحبكِ... أحبكِ...

حاصرها بالقُبل ، على البساط المرقَّع أسقطها... حاولتْ التخلص من سياجه ، بيد أنه كان محكمًا مُصرًّا على الخدش... عاندت فورته مذكرة إياه باحتضار البقرة ، لكن

جثته المحرورة أخرستها ، كمّت تمردها ، أيقظت شهوتها حد الاستسلام!

في ارتخاء حزم "احماد" رباط سرواله ، ارتدى جلبابه وانتعل خُفيه ثم خرج.

بعد ساعة قفل عائدًا والوجوم يغشاه ملء الوجه... "حادة" استحلت البساط والملاءة فظلت مستلقية ، عندما اقتحم الغرفة ، تحركت ، رفعت رأسها مستطلعة ، نفحها الإطراق والوجوم ، أحسَّ "احماد" توجّسها ، اندسّ بجانبها نصف ممدَّد، أجابها قبل أن تستخبر:

– العوض على الله... ماتت البهيمة.

جفَّ حلقها ، خانتها الكلمات ، أوصالها المتعبة ، دفنت هامتها في الوسادة ، بَكَتْ في صمت ، تاهت في خرائط التّفال.

لاينها "احماد" مستحضرًا كل طاقته ، وحنكته ، ونزقه... أمطرها وعودًا ، مَلّطَ جميع الثقوب التي فتحتها... أثّر فيها لطفه، سخاؤه وهي الأرض المُحِلّة المشتاقة، المحتاجة للبلل.

تزوجت "حادة" وتكلّف "احماد" الاستقامة... لاطفها أكثر وأكثر، وسوس لها حتى أقنعها ببيع المنْزل:

- روح "هنو" خنقت البقرة، لم تمت من مرض أو قلة العلف، ولن تهدأ حتى تأخذ معها كل شيء، هذا ما شاع في القرية، ماتت الدجاجات الواحدة تلو الأخرى. وقد تختاركِ هذه المرة، أنتِ أقرب الناس إليها... لا بدّ من بيعه، وبثمنه نشتري ضيعة صغيرة... هيه... ما جوابك؟

من دون تلكؤ، فعلت ذلك...

تعجلت رؤية أرضها تُحرث، تُسقى، يُحصد زرعها ليباع في المدينة علّها تُعوّض ما سرقت روح "هنو" الشرهة: البقرة و الدجاجات!

يومًا بعد يوم، يكبر الحلم، تهرع إلى الباب مستقبلة "احماد" وسؤال لقيط بين شفتيها: هل أنهيت الإجراءات العقارية؟ مخيلة "احماد" لا تنضب، مهنتها اختلاق الأعذار... طال انتظارها وعيل صبرها، واجهته لمّا خامرتها الشكوك، هذه

المرة خاشنها... أرغى وأزبد ، أذلّها ، أشبعها ضربا ، كاد يخمد أنفاسها ، فتخلصت من قبضته ، ثار ، جرَّها من ثيابها حتى تخرّقت ، بان صدرها ملتويًا ، ضامرًا... جحظت عيناه الحمراوان ثم تمطى على البساط ، يقهقه كمن أصابه مس ، يعوي ويصرخ كالمخبول:

– "حادة" ، البالية ، المتلفعة ، العفنة ، أفني شبابي من أجلها ، والأجساد الممتلئة في البلدة اتركها للديدان ؟ هيا ! احزمي أمتعتك وارحلي ، اخرجي ، فأنت طالق... طالق... طالق...

بهذه الدقات يا صاح ، تبدأ الحكاية ويعلن القهر حضوره ، تجبّره ، انغراسه في الديمومة ، وبهذه الكلمات التي أخطها ، أنا شاهد القصة وكاهنها ، أرسي معكم عند آخر مرفأ رأيت فيه "حادة" وهي تبسط كفّها متسوّلة ، طارقة هذه المرة أشرس الأبواب ، أبواب المدينة !.



خيالات

تُغريني مُخيّلة الأطفال ، فأقرِّر ذات يوم خطة تُمكّنني من استحضار صباي المنفلت كقبضة ماء. تأسرني رغبة التصابي فأهمس في قلوبهم، بصوت رفيع، رقيق، طفولي:

– أحبتي الصغار ، قبل مغادرة الفصل، سنمارس جميعنا لعبة مسلية تسمى "الخيالات" ، هيا ، اغمضوا أعينكم الجميلة تخيّلوا موقفًا ، أشياءً معينة، أشخاصًا ، أي شيء... هيا !

في استسلام وحماسة يعانقون الظلام ، تغويهم العتمة المصطنعة ، يبتسمون. ربما سئموا – هم أيضًا – الأنوار الزائفة، والنُهر المعتمة !

ثوان فقط تنحلّ عقدة اللسان ، فيشرع تلامذتي في الكلام ووصف التمثلات:

– أرى أمي جالسة في فناء الدار وبين يديها رضيع كالحمل تهدهده بحنان فيغفو. كم هو محظوظ ينعم بالدفء والراحة، بينما يقرسني التعب والبرد في حجرة الدرس. (يضحك) أوه... قطنا يتكلّف النوم، يتمطَّى كقطعة قماش بالية... صه! عصفور يلج الحلبة، خدَّرته الشمس وامتصت تيقظه... بف! وقع في الشرك!

– أنا يا أستاذ أشاكس الخنافس، رائحتها الكريهة لا تطردني، أنتقي واحدة وأقلف سقف جسدها، أعرِّيها كما أقشر البرتقال، انقباض واهتزاز الشحم يسليني... الآن... (فاغرًا فاه) أتملَّى السماء، حالكة سوداء كسقف خنفساء، أقلفها هي الأخرى... لا شحم ولا جنَّة، الخواء والسواد فقط... أقيء هذه المرة!

– أمَّا أنا، أتصوَّرني أمشط شعر أختي الشقية، أشدُّه بقوة، فتصرخ مقطبة، مدمدمة، أبدأ في الانشاد علَّها تهجر البكاء: مدرستي الحلوة، مدرستي الحلوة... مد... تقاطعني، وتزهق من أسنان المشط محتجة: لماذا لم تحضري

لي الحلوى من المدرسة ، لن تمشطي شعري بعد الآن حتى أحصل عليها !

– أرى حقولاً متعددة ألوانها ، يتوسطها جسد بدين ضخم لا يتحرك ، جلبابه مرقع ، لا وجه ولا ملامح تميزه... قالوا عنه فزاعة ، غير أنه بريء ، طيِّب ، يحترم العصافير ، فلا تهابه ، بل تشحذ مناقيرها عليه استعدادًا لكشط السنابل. الآن... أدنو منه ، أسخر منه... أُسقطه فأحتلُّ مكانه... أستحيل فزاعة متخشبة... أبتسم ، فتخفق العصافير وترحل !

– أخرج من المدرسة والغبطة تدفعني كما الريح للتسابق مع أقراني... نتدافع ، نتصادم ، ونزعق كالمجانين... في طريقنا ، نلتقي بلص القرية الشهير "علي" ، نتحاشى نظراته المرعبة ، ونطأطئ رؤوسنا ، حتى إذا جاوزناه ، نستبسل ونُسمعه نشيدنا الجماعي اللاذع : "علي" الشفَّار (اللص) يمشي للنار... "علي" الشفَّار يمشي للنار. يطاردنا ككلب مسعور ، تتشتت الكوكبة...

أعدو وأركض. يلاحقني ، يكاد يمسك بي ، لكن خفتي تغيظه، يستنجد بالحجارة، فأقرر الاختفاء!

أصغي إلى خيالات أطفالي والابتسامة لا تفارق شفتيَّ ، أن أرحل إلى براءة الماضي من خلال ذاكرة تطفح صفاء وعفوية ، يمنحني شعورًا عرضيًا بالاستقرار ، لغة الأطفال حقيقة تسرق مني فرحتي المغتالة ، تمتشُّ همِّي الذي استعمر مقلتيَّ فاحترفت الأسى والبكاء.

زَحْفُ التمثلات يتوالى ، يتواتر... أتذرع بالوقت ختمًا للعبة ، يصرُّون في استعطاف على الاستمرار ، أعدهم بتكرارها ، ثم أطلب منهم الانصراف. يتخلَّف عثمان، أجرأ تلامذتي. يرمش بعينيه الضيقتين بخفة ، كما لسانه يتحرك دون كلفة:

– أنت أيضًا يا أستاذ ، غدًا ، ستصف لنا خيالاتك... أليس كذلك؟

أومئ بالإيجاب ، فينسحب من القسم مقلدًا أزيز جرَّار.

رهين حجرة الدرس أظل ، بجدرانها المتصدِّعة ، وطاولاتها المنخورة العرجاء ، ونوافذها المشرعة صيفًا وشتاء. أتذكَّر عثمان وجرأته ، أتنفس حجم الورطة ، لكن أقرِّر ركوب التجربة وكشف خبايا الذاكرة. أعانق الظلام وأسافر...

أجدُني متوسطًا ركحًا عتيقًا ، خافت الأضواء ، موزَّع الفضاء. هياكلنا المتوترة تعاني التقلص ، في الكتف وأسفل الحبل الشوكي وفي العنق. جهازنا التنفسي يعاني الاختناق. في الرئة هواء فاسد. أعصابنا العقلية والجسدية مقيدة. لا مندوحة من تمارين الاسترخاء ، والتنفس ، واكتساب السيطرة. لا مندوحة من خلق جديد يفعل الحياة بكاملها فوق هذه المنصة ، أخالني رئيس الفرقة ، أديم التفرس في عيون الطلبة ، أنوِّمهم وأحملهم على تمثل أبهج الصور. أنفاسًا عميقة يأخذون ، ولأعصابهم مُحرِّرون. الصمت يغشى المكان ، بين الفينة والأخرى تقطعه التعليمات. أنتظر ولادتهم الجديدة ، تعبيرًا جسديًا ، نطقًا سليمًا ، ترنيمًا مميزًا ، حركة منظمة ومرونة في الأدوار. لحظات فقط ، أحصد

السواد. السيمفونية الآسية تلفُّ الصالة ، وخدود الطلبة تغسلها مقل دامعة ، ذاوية. يصفعني المشهد وفشل التمرين ، أستنسر وأخفق بجناحيَّ ، أصنع زوبعة مستعيرة لفضح الصور المنتقاة. الجفون تنكمش ، تنحسر... قحط ، جدب ، لا أثر لأي مشهد يسرُّ ، كلها خيالات نتنة ، مقرفة ، مُهيِّج الأعصاب وتوتر العضلات. أحدهم يستمني ، وآخر يفتش عن لؤلؤة في الأمعاء ، وذاك يؤس بيته بغبن الفقراء ، وبقيتهم يعتِّقون الأشلاء!

أشفق عليهم ، وعلى نفسي ، لا أدينهم أو أدين نفسي. هو ذا جيلنا العصبي ، ضحية جذور عفنة لأن الشجرة تُعرف من ثمارها. أعصابنا ستتحرر طلبتي الأعزاء ، بقلع الجذور العفنة ، إنه بداية التمرين!

ما زلتُ ممتطيًا حلكة الخيال ، والصور تحضرني مختلطة ، مصرَّة على كشف وخرق الذاكرة ، تستقر هذه المرة على فضاء مدرسة سحيقة ، مثخنة بالمأساة والأوجاع. زعيق أطفال ، دخان مدفئة ، وخفقان راية ممزقة ، ثملة. حمادي ،

المكلف بمطعم مدرسي ، يبدو كدجاجة محاطة بفلاليس ، يحشو كسر الخبز بالسمك المصبَّر ، والأفواه الصغيرة تتحلَّب انتظارًا وجوعًا. بخفة تتحرك يداه ، توزعان القطع المكوَّمة على شكل جبل أو هرم فتضمحلُّ دائرة الصغار ، دقائق فقط ، يستعمر الصمت المكان ، يشغر المطعم إلا من صاحبه ، وعلب السردين المشرعة سقوفها المسننة. يتأملها حمادي ببله ، يحك شعره المغبر ، المتلبد ، فتجتث أصابعه الخشنة بعض الشيب. يرمق العلب الفارغة. جامدة ، ساكنة لكنه يخالها ساخرة ، مكركرة. مذ كان فتيًا وهو يعالجها ، وما انفك يفعل ذلك ، وهو الأشعث ، الأشيب. يتأفف ، يؤهُّ، يحس الزيت المتراكمة رائحتها كل هذي السنين ، تغلي، تتفرقع بداخله ، يحمل معدته على تقيئ رتابة ، فقر لازمه كالقدر. يداعب هذه الرغبة بأصبعه ، فيقيئ الخواء ! يتبرَّم ، يتأمل العلب من جديد ، هذه المرة تنوشه ضاحكة: وهل يقيئ من كان رهين الجوع والخرس ؟ يثور حمادي ، يركلها بقوة ، فتتطاير في الهواء ، معانقة ساحة المدرسة

وزعيق التلاميذ. ضجيجهم علامة ودليل انتهائهم من بلع كسر الخبز ، وأيضًا بحثهم سبل صرف فائض طاقتهم. صدى ارتطام العلب بالأرض لوى أعناقهم، وصرفهم عن اللعب ، لا مجال للّهو والأمعاء غير مُكتفية... الآن ، يبدأ التسابق والتدافع ، تستيقظ لذَّة اللَّحس ، ويشرع الكلُّ في التنافس والتصادم. يُثار الغبار ، ويحمى الصراع ، أضيِّع وسط اللقطة ، لكن أخطف النهاية؛ العلب المُهملة تعاني الأسر واللّعق بلا رحمة ، دروعها المسننة الحادة ، شرمت الألسن، ومزقت الأصابع حتى الادماء، بيد أن الصغار أبدًا ما أحسوا الألم. همهم الوحيد ، خنق ذاك الوحش الذي ينمو ويتكاثر في بطونهم. حمادي بسرواله المرقع، يحك رأسه المتلفع، يتسلّى بمشهد التزاحم والتدافع، وهم لاحسي علبه الفارغة، المركولة... "اثْفُو... إننا نعيش الثبات"!

أخلص أنا الراكب جرح الخيال إلى هذه النكسة: أن تعاني الثبات ، والركود كماء آسن ، فاسد ، يعني الانخراط في دائرة المتجاوز أو المهجور. ربما الخروج من الطبيعي المتجدِّد

إلى الشاذ المنبوذ. طيف عثمان يمثل أمامي بكل شموخ. آه لو أملك طهره، براءته، جرأته، لو أرتقي لأسلوب الصغار!

قفر الذاكرة عاهتي ، عجزها عن امتصاص الألم محنتي ، الخيالات عفنة، ممضَّة، ممنوع وصفها لأحبتي. أخيرًا أبحر مع عاشق زاده الزهر والأمل ، أراه متأبطًا كتابه ، والقصيدة الخجلة ترنو لهمس الحبيبة ، وحور العيون العنيدة ، يحثُّ خطاه، والقلب البعيد يهفو ويقترب، يسوِّي هندامه، ينتظر اللقاء الحلم على عتبة الباب ، يقرع ويقرع. يتردد صدى الغياب. يتشبث بالأمل، يطرق الباب مرات، يلكزه غياب تام ، ورحيل مؤكد. يتلفت يمينًا ويسارًا ، جميع الأبواب موصدة. أيسأل عنها الجيران أم الجدران؟ اللاأدرية المرعبة تتقفَّى حرقته ، طريقه نحو المجهول. إنه يزحف ، يُحوقل في مشيته كشيخ دكَّه قرّ السنين ، أملُّ مسيرته الطويلة ، البطيئة، فأُسمعه صوتًا من السماء، لأحدَّ بحثه وشقاءه:

– ضالتك ضمَّها التراب، حبيبتك أقامت عند الرب، اقفل وارجع، فحاجتك لن تصيبها مهما عاندت!

– وأين شاهد قبرها... أين... أين؟!

هكذا يزمجر ملغيًا قدسية الصوت السماوي، أباركه وألفُّه في الظلام. يستشيط غضبي، مللي، فأقرِّر تمليط ثقوب الذاكرة. أفتح عينيَّ، وأشبعهما من إعاقتنا المستديمة، لأدرك أن خيالاتي وتمثلاتي امتداد لها.

أنسحب من الفصل وثقل الورطة يلازمني. أفكر وأهمس لنفسي: كيف أصف النتانة لأطفالي... أنجِّس الطهر والبراءة وأقضُّ مضجعهم بأنَّاتي؟ لكن، أليس من الضروري تهييئهم لغبن المأساة، إعدادهم لزمن الخطيئة المؤكدة؟؟ وأُحرق المرحلة الملائكية! لا... لا... لن أفعل ذلك ولو تعمّدت الكذب! أجل... لِم لا أكذب؟ أوليس الكذب سِمة كبرنا ومأساتنا؟ سأكذب لخاطر تلامذتي، أُلــمِّع تمثلاتي المغبَّرة. عذرًا عثمان سأنحدر لأسلوب الكبار!



نافذة الإغاثة

- حتى متى أصبر وأنتظر يا إلهي؟

اندفع السؤال حارًّا ثائرًا كما من فوهة بركان نشيط نفذت صهارته من بين أضلع "مُنى"؛ مغلِّفة جسد الصغيرة الشقراء على ركبتيها بسحابة كثيفة من الحيرة.

كانت تلك أول مرة تغتصب فيها "منى" عذرية الصندوق السري معلنة هشاشة أركانه وصدأ نتوءاته الصدفية البرونزية. لطالما أمعنت في الكتمان واحترفت لعبة الأقنعة كيما تُبقي الصغيرة "ريم" في دائرة أمان وهدوء بعيدًا عن المشاكل والخلافات الأسرية، وقلَّما وقفت أمام جموح زوج اندفع وراء نزوات واهتمامات دونية حدَّ تمزيق الرباط المقدّس وتدنيسه. أتراها تدفع ضريبة الصمت؟ أم هي ضحية هرطقة ذكورية تشكَّلت وتطورت وتجذرت عبر

مدارات الزمن آخذة سمة اللزومية؟

- أمي!

- أي حبيبتي!

- كم يومًا سنمضي عند خالتي راحيل؟

- لم نصل بعد حلوتي وتفكرين في الرجوع؟ خالتك ستغضب!

هذا ما كانت تخشاه "منى"؛ من اللّجَج العميقة في باطن مخيِّلة الصغيرة ستتفجر الأسئلة الكبيرة والملغزة وقد تستحيل طوفانًا يغمر صندوقهما السرِّي فيعبث بمحتوياته ويكشف خباياه!

مشهد الطوفان أرعب "منى" فقررت توجيه فراشات الأميرة "ريم" نحو مراعٍ خُضر بعيدًا عن بريتها الموحشة وشمسها الحارقة. بحنان ضمتها إلى صدرها وكأنها تحميها من مجهول، ورغم خلوِّ المقعد بجانبها من أي راكب فقد فضَّلت إبقاء "ريم" على ركبتيها متجاهلة حرارة أغسطس وهذا الهواء الساخن، المضغوط داخل حافلة/ فرن غير مكيَّفة... وحتى

تسلي عن الصغيرة بعض الملل والتعب، طفقت تدندن لحنًا قديمًا وهي تداعب خصلات "ريم" الذهبية بأطراف أصابعها معيدة لها شكلها اللولبي الجميل، ولعل هذا ما حمل جسد "ريم" على الاسترخاء فالاستسلام لشذى صدر والدها وما ينضح به من حنان وطيبة وأمان. حينها صعدت من أحشاء "منى" زفرة عميقة وكأن ما لحق بعشهما من عبث وتفكُّك تحوَّل إلى وحش يمارس حياته فيها كلَّما غفت أو حنت لهدوء نسبي أو راحة وقتية؛ تارة يغرقها في حوار داخلي رتيب لا رأس له ولا أساس، وتارةً أخرى يتقمص دور الزوج باحترافية وأداء مقنعين معطيًا لخبرات الألم فرصة التكلُّس والحضور.

- الحياة معكِ "منى" صارت لا تُطاق! تحشرين نفسك في كل شيء! تريدين ضمِّي لحامل مفاتيحك؟ ارحميني يا امرأة!

- الحياة معي صارت جحيمًا؟ هل تأخرتُ يومًا عن تلبية طلباتك؟ الوحيد الذي له الحق أن يرغب ويريد ويأمر

ويرفض ويفرض هو أنت ! مراد ، أعلم أنك لم تعد تحتملني رغم جهلي بالأسباب لكن ما ذنب طفلتنا ريم؟

- وما دخل ريم في الموضوع؟

- تغيرتَ كثيرًا من ناحيتها، ما عدتَ تأخذها في نزهات أو تتصابى معها مثلما عهدتك على السجاد! ما عدتَ تهتم بها و كأن سرَّ الأبوة فيك قد مات!

صدر عن ريم فجأة صوت أشبه بالأنين وكأنها مايسترو حوار نشاز أمعن في التهاطل من سماء غاضبة بلون الدم والنار والكبريت.

- ماذا تفعلين منى؟

- كما ترى؛ أعدُّ حقيبتي.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان، المهم بعيدًا عن هذا الجحيم!

- أها... جلسنا وفكرنا وخططنا وقررنا ، وها نحن نُعدُّ الحقائب ونحط كل شيء موضع التطبيق من دون اعتبار لأي سلطة في البيت أو ترتيب!

- من فضلك مراد ؛ كفَّ عن هذا الأسلوب فجسدي منهك وذهني مشتت ، أما صدري فقد امتلأ من مشاجراتنا الهستيرية حدَّ التخمة!

- سؤالي واضح ومحدَّد: إلى أين ستذهبين؟

- سأزور أختي "راحيل" لبضعة أيام، وربما سأقضي الأجازة كلها هناك.

- ماذا؟ الأجازة كلُّها؟ ومن سيرعى شؤون البيت؟ بعد أسبوع سألتحق بالعمل!

- يااااه مراد ! تريد من الجارية "مُنى" أن تهتم بطعامك وشرابك ولباسك ، أما العشيقة ، الخليلة فب..... !! ألست تخجل من نفسك أيها الأب المحترم؟

- هل اتصلت بك راحيل ثانية؟ ملأت ذهنك أكاذيب وخرافات! شحنتك كالعادة ضدِّي؟

- يا زوجي العزيز ، تفكِّر دائمًا كما الأطفال يفكرون. الكل بات يلوك قصة علاقتك بتلك الحشرة ! وحدها حمارتك الصامتة اختارت عدم التصديق طلبًا للتعزية ،

لكن البارحة عند الفجر رأيتكما تتحاوران عريانين عبر الإنترنيت و...

– اخرسي!!

توقفت الحافلة فجأة وتصاعد من مقدمتها دخان قاتم أجبر الركاب على النُزول سريعًا خشية أن ينفذ الدخان الأسود إلى الداخل فيصابوا بالدُّوار أو يجبروا على لفظ أمعائهم في أكياس بلاستيكية ، آنذاك تدافعت الأجساد عبر الممر الضيق فامتزجت رائحة البنْزين بزفراهم العميقة وكأنهم عائدون للتو من ساحة حرب أو أُرسلوا أحرارًا بعد أسر في أرض غريبة.

كانت المنطقة التي حدث فيها العطب شبه صحراوية يكاد ينعدم فيها أي أثر للظل لولا أعمدة الكهرباء المنتشرة على طول الطريق والتي بسطت ظلالها المستقيمة الحادة الضيقة مُشَكِّلة والعمود الإسمنتي زوايا قائمة تخالها كراسي استراحة تقدِّم الدعوة لكل سائح تائه أو عابر سبيل.

"مُنى" وبعض الركاب فضلوا البقاء في الحافلة ومقاومة

الهواء الملوث بمناشف معطَّرة خوفًا على أطفالهم من ضربة شمس في الخارج، ولعلّ كلمات المراقب وتقريره المقتضب والمطمئن عن حالة محرك الحافلة ضاعفت من قوة احتمالهم وصبرهم مادامت الرحلة ستُستأنف بعد عشر دقائق.

بالنسبة للصغيرة "ريم"؛ توقُّف القطار، السيارة أو الحافلة يعني ياغورت، قطعة شوكولاتة أو كيس فستق مملَّح، وبالفعل وبشكل آلي، أجلستها "منى" على الكرسي الذي بجانبها، وأخرجت من مزودها المطرَّز قطعة حلوى ملفوفة بعناية في ورق ألمنيوم ثم كيس الفستق الذي لا غنى عنه وقت السفر. وفيما كانت "ريم" تقضم الحبات المملَّحة وتتأمل ورق الحلوى الفضي في انشغال طفولي؛ كانت والدتها تكتحل بحبَّات ساخنة رمليَّة، وتشدُّ حقويها بنباتات شوكيَّة، متأهبة لطقسها البرِّي الروتيني الفردي. لكن هذه المرَّة فوجئت بصحرائها الممتدة الأطراف وقد ضاقت بجموع المسافرين والتائهين والمغتربين والنائحين والساجدين والراكعين والمعطَّلين والمتشكِّكين والخائفين والمتنعِّمين و...

و... هياكلهم مطمورة في الرمال إلى الصدر ، ولسان حالهم: ابتعدي "منى" لا تقتربي من هذا القفر!

شُلَّت حركتها تمامًا لرؤيتها ذلك المشهد وظلّ صدى تحذيراتهم يتردد في داخلها لبعض الوقت إلى أن تلاشى وضاع بين حروف عبارة بارزة أمامها: "نافذة الإغاثة".

حوَّلت "منى" انتباهها عن الصحراء وأخذت تراقب ظلال المسافرين وهي تستعرض ألوانها القوس قزحية على هامش الطريق، متداخلة حينًا، متقاطعة ومتماسة حينًا آخر، لكن قلَّما لحظتها متنافرة متصدعة. كانت منسجمة، متفاعلة وعفوية أكثر من حامليها وكأنها تعرض أمامهم نموذجًا أصيلاً للحياة.

استمرت "منى" في تتبع الظلال المتحركة فيما يشبه العبث وقد ألصقت خدها بزجاج النافذة، مُردِّدة اللحن القديم ذاته، وكلما حجبت السحابة الصغيرة "العرض الظليّ" الرتيب؛ كانت تلفُّها بحركة دائرية سريعة داخل المنشفة المعطَّرة ثم تواصل المشاهدة، كان طرف الثوب الأرجواني

المعتَّم بين أصابع يدها ينتظر نهاية العرض بيد أن شعورًا خاصًا انتابها على حين غرة فلم تقو أو تجرؤ على إسداله، لم تتعرَّف "منى" مصدره لكن أحسَّت به يمتلكها، يسود عليها ويخلق فيها أشياء جديدة لم تختبرها من قبل.

واصلت "منى" متابعة "العرض الظليّ" بجوع وعطش غريبين باحثة عن ظلٍّ يشبهها، يحاكي تيهها وغربتها في البرية، يجتثها من تربتها المالحة ويزرعها في عذوبة المعنى.

على الجانب الأيسر من "نافذة الاغاثة" لاحظت "منى" يدين صغيرتين تثيران الغبار بنشاط زائد فتتبعهما يد كبيرة لتنفض عنهما الغبار وتحوِّل حركتهما نحو شيء آخر، بل كلَّما أصرَّت على منعهما أمعنتا أكثر في العبث بالتراب وهكذا.

تحيَّرت "منى" وهي تتأمل تلك اليد المُوجِّهة والمُصِرَّة على منع الصبي من إثارة الغبار دون كلل أو ملل. "ماذا تراني صانعة بالصبي لو كنت مكان تلك الأم؟" حاصرها السؤال لكن لم تجرؤ على مواجهته فقررت نقل فضولها والتطلع إلى الأم جملة هذه المرَّة. "مستحيل إنها هي... نعم أعرفها حق

المعرفة لكن لِمَ هي تشبهني حدَّ التطابق؟ لا... لا... من غير المعقول أن أكون أنا ! لست أحمل سمات تلك الأم الصابرة المُحبة بلا حدود ! أهي الحقيقة يا إلهي وأنا ظلها؟ وماذا عن الصبي؟ لعلِّي أهذي من ضربة شمس. طفلتي الوحيدة هي "ريم" من أين لي ذاك الـــ.. صبـــ... ؟" تخشَّبت الحروف في حلقها ، بل صُعقت حينما مرَّرت بصرها على تقاطيع وجه الصبي. كان هو؛ "مراد" زوجها بنزقه واندفاعه يثير غبارًا أصفر من حولها ، منتعشًا بظلها الأسود ومُراوغًا تلك اليد الكبيرة؛ يدها المثقوبة ، المُوَجِّهة والمُصرَّة على مَنعه من إثارة الغبار دون كلل أو ملل!.



القطار

جمعتُ أغراضي ذات صباح بهيٍّ، واتجهتُ صوب القطار. كان أملي وأنا أجوب شوارع المدينة الصامتة الوصول في الموعد المحدَّد هذه المرة! نعم، فكلّما حاولت تخطي زمننا المترنح على متن قطاري الغاضب السريع؛ يفاجئني هذا الأخير بغيابه ورحيله المبكر، مع أني لست بذلك المتراخي فأحيانًا أستيقظ قبل استيقاظ سائق حلمي: "القطار".

كان أملي إذن الوصول في الوقت المحدَّد، لكم تمنيتُ أن أحققه ولو لمرة واحدة في حياتي. كان أملي عاليًا، أسلمتُ قلبي وعقلي ونفسي له ولم ألبسه قط بباقيات آمالي الغالية! لكن ذاكرتي تنتصب أمامي حصنًا هلاميًا يحول دون دخولي أزمنة التحقق، تعالجني بضربة مفاجئة فتبقيني رهين أزمنة التهيئة وأخطائها.

أجل... وأنا في طريقي تتقدَّمني ذاكرتي النشيطة الجامحة في اندفاع وحشي مثيرة بقايا إخفاقاتي ومستمطرة سهام محاولاتي الفاشلة، فأسقط كعادتي في دوامة الاستصراخ.

من يُصعدني من جُبِّ الهلاك؟ من يحلّني من رباطات القلق وينتشلني من مياه التهديدات الهادرة؟ كنت أستصرخ وحيدًا وكان صدى وهني يتردد، كنت أقاوم وأقاوم ولكن وحيدًا وحيدًا!

جَنَّ عليَّ الليل وأنا أحثُّ الخُطى في اتجاه المحطة. لم أكترث بالصمت الذي حاق بي من كل أَوْبٍ، ولا بالسواد الذي امتصَّ بريق عينيَّ، كنت أسرع وكان أملي يقترب، أسرع وهو يقترب وفجأة توقفت! لم أبلغ هدفي بعد، ولكن توقفت أو بالحريِّ تعثرت ولم أستطع تجنب ذلك، ولم تبذل هي أدنى مجهود لاستبقائي.

إنها قطتي الممشوقة "عادة"، وبنوع من التدقيق: الحلقة الأضعف في السلسلة، أقصد سلسلتي أنا، أما سلسلتها هي فمُحكمة حول عنقي، تدافع عن حقها الطبيعي في الظهور

متى صرفتني عنها أهداف كبرى تقاوم التفاصيل باستماتة وتتمنَّع أكثر أمام أي استمالة رقيقة تبغي رقعة أو قطعة أو لقطة من ملء المشهد، فهي تدرك تمامًا أن عضة خفيفة من قطتي الصغيرة الناعمة تكفي لشقِّ جرح لذيذ أنزلق فيه وخلفي كل غاياتي وأهدافي وأسئلتي الكبرى.

هي العادة، الحلقة، اللسعة، الصفر الذي ندخله آمنين مُتحفّزين ثم نخرج منه بعد برهة وأحيانًا بعد هربة متعبين وبالخزي ورائحة الندم مضرَّجين! هي ذي الآن تراودني عن نفسي، تتمسَّح بأعتاب جسدي وكأنها تستعطي المفتاح، مفتاحي الذي تعرفه جيدًا لا يتحرَّج من فتح كل الأبواب، أمامية كانت أم خلفية. ولأن عادتي الجميلة تعشق الحرية فلا بأس أن نجرِّبه في كل الثقوب ونسوِّي به كل التضاريس ما علا منها وما انخفض، فمتى وقع المفتاح لا قدَّر الله بين مخالبها، تُسقِط كل السقوف والحواجز والجدران فلا تُبقي لي غير حُوَيط أهتدي به بعد أن أعمي إلى قبس مِنِّي!

كانت هي العشرة تلك الليلة فيما كنت أسرع لبلوغ المحطة وكنت أنا المفتاح الذي أدخلني لعبة الكرِّ والفرِّ لأنتهي للنطحة التي تنشدها قطتي "عادة". المضحك/المبكي يا أحبائي... (بعضكم ربما يشكُّ في نقاوة هذه المحبة لكن ثقوا؛ "عادة" واحدة تكفيني) أنها فور حصولها على الحصة الكافية من اهتمامي ينبت لها على حين غرَّة ذيل خرافي متين تُحكمه حول عنقي بلا هوادة وتبدأ في جلدي بذيلها الطبيعي الذي لا أخطئ أبدًا رسائله الأصيلة، على ظهري ووجهي ومؤخرتي، ومع كل جلدة ينفلق ضميري ويكبر هو الآخر في لمح البصر، الأشياء... الأصوات... الروائح... الخواطر... كلُّ شيء من حولي ينمو ويكبر ويرتقي، يُنتخب في طرفة عين، إلا أنا، وحدي فقط أنغرز في كبد الطريق حائرا خائرًا باحثًا عن ورقة مهملة أو رقعة بسيطة منسية على "كلاينكس" لأواري بها ردم النطحة.

شيئًا فشيئًا أصغر فأفزع من هول هذا الضمور إلى كدسة من "كراتين" متهالكة على رصيف العطفة الأولى بالشارع

الرئيس، أدفن رأسي كلَّه في أول خوذة دونكيشوتية متاحة لأفصل وجودي عن كومة الأشياء والروائح والأصوات والخواطر والأمواج التي كانت تنمو وتكبر وتنتفخ في اطراد وتهيئ السبيل لمرور قطاري السريع الغاضب.

في زحمة الأشياء الرخيصة أضيع أكثر مشتهيًا تحلُّل عناصري الدقيقة وجزيئاتي الساكنة. أفتح صفحة الــ "كلاينكس" على بقايا نوعي وسلالتي الافتراضية، أبني من ردم النطحة الهلامي قبة كبيرة وأُسَيِّجُها ملكية خاصة لتصير قِبلة وقضية، أستعجل التطبيل والتزمير لهذا الحدث الجديد، أنا الآن مندمج بالتمام في لعبة التحوّل، غارق في ردم النطحة، سعيد بهذا التأمل والتوحُّد، منفصل بالكمال عن كل الهواجس والأفكار والأحلام والقيم التي تسمو، عن صفير القطار الواثق الماكر الذي يعلو الآن ويعلو ويعلو.

صه ! إني أختنق... نعم أختنق... ابعدي عني يا بروق، وارحل يا شبح الدماء الممقوت.

لا أريد جرعة ثانية من ذاكرة عليلة، لا أريد.. لا..لا..لا..

من يُصعدني من جبِّ الهلاك ؟ من يحلُّني من رباطات القلق وينتشلني من مياه التهديدات الهادرة؟ من؟ من؟ من؟

تكاثفت أسئلتي على سطح المرآة فيما كنت أتحقق من هندامي قبل مغادرة الشقة. حاولت إنهاض نفسي ببعض الابتسام، بيد أن أسئلتي راكمت في بذخ سريالي سحابة جريئة طمست ملامح وجهي وكأنها تمارس الاعتراض. استفزتني ضبابيتها فلوَّحت بسبابتي محذرًا في البداية ثم رشمت علامة استفهام عريضة راقصة على أديمها الباكي لأنسلَّ من الحمام إلى غرفة النوم حيث مرآة الدولاب الصافية.

في وسعي الآن مصارحتك يا "أنا"، مصاحبتك ومصالحتك، أليس اثنان خير من واحد؟ تحالفنا إذن سيثمر نجاحات لافتة وسيعلم كثيرون أنك الوحيد الذي كنت في صفي أبدًا ولم تقاوم تحركاتي قط.

ماذا؟ ما زال أمامنا متسع من الوقت؟ حسنًا سأغير ربطة عنقي، القطار بني داكن ومحفظتي الجلدية سوداء لامعة،

جيد... هذه إذن توافق البذلة ومتناغمة مع الأجواء على متن القطار ، تعرف يا صديقي رمزية هذه التفاصيل وما تخلقه في نفوسنا من اعتداد وثقة ، تسعدني مصادقتك على وجهات نظري الأثيلة ، وأيضًا أظنك أسعد بطاعتي لكل التعديلات التي تشير لها مرآتك النقيَّة ، أستطيع الآن تفهُّم غضب القادة ومن هم في منصب من أي مقاومة ذاتية تقف في وجه رسائلهم الجبرية ، طيب... سأغادر الآن هذا المكان وأنت بدورك ستعانق في الخارج أديم الأرض وتضحي ظلي الأنيس والشاهد الأمين الوحيد على تفاصيل الرحلة. من ابتدع فكرة اليد الواحدة التي لا تصفق ؟ حسنًا... أنا مصمم هذه المرة على بلوغ قطاري بل قيادته ولن تشغلني عنه أسئلة جانبية !

وقفت بباب الشقة ثم دفعت يدي برفق في جيب البنطلون الأيمن لألتقط المفتاح فلم أجده ، تحسست الأيسر براحة يدي فقط ثم جميع جيوب البذلة فتبيَّنت عدم وجوده ، حاولت تهدئة نفسي القلقة بكذا عبارات وأقوال مأثورة

لعلَّ ذاكرتي تنجح في ترتيب الأحداث والخروج من متاهة حركاتي القصدية والعفوية بشيء يوصلني إلى مفتاحي المفقود ، هيا... بالهدوء والطمأنينة تكون قوتك ! ركِّز أكثر... ركِّز... يا إلهي من سدَّ الباب أصلاً ؟ من أدار مفتاح القفل ؟ هل دخلتُ الشقة وأغلقت الباب خلفي دونه؟ لكن من له مصلحة في حبسي بهذه الطريقة؟

– هل أضعت شيئًا يا عمي؟

جاءني الصوت من وراء الباب متبوعًا بضحكات مكتومة وأدركت عندئذ أن القصة محبوكة وبفعلة فاعل مستتر تقديره "هو" ! ومن غيره ، "ابن كريمة" السخية في إطلاق دفعات متتابعة من الأطفال ، الحريصة على إرضاعهم لبن الرصيف وتدريبهم على قطع مسافات قصيرة وطويلة بالشارع الرئيس. لكن لم أتوقع هذه الطفرة المُجنَّحة. كيف تمكنوا من الصعود في غفلة من البوَّاب؟

– اسمع يا ابن... إن تفتح الباب أصفح عنك!

– وإن لم أفعل؟

– تعقَّل يا "ابن اللئيمة" وإلا خابرت قسم الشرطة!

تردَّدت كركراهم المخنوقة مثل الشخير المتقطِّع في فسحة الدور الرابع من المبنى، ولولا قلقي الطبيعي الذي أبقاني داخل نظام أولوياتي ولائحة أعمالي الأساسية، لانبثقت من وسط نزقهم كائنًا فانطاستيكيًا يُدير في نشاط خالص أغصانهم المكشوطة فتفرخ في لحظة خلق عجيبة، نعم تُفرخ جميعها في غفلة من الإله ودون اصطفاء أو انتخاب كهنوتي، دمى وأحصنة وكرات ممجَّدة لا تتفكك أو تنحلُّ عناصرها بفعل الزمن... أجل تُثمر لهم الأغصان عناقيد لعب!

– اسمعوا يا صغاري! سأكون كريمًا معكم وأشتري لكل واحد منكم لعبته المفضلة. فقط افتحوا لي الباب. أمامي فسحة قصيرة من الوقت لبلوغ محطة القطار. افتحوا الباب الله يفتحها عليكم!

– لا نريد لعبًا يا عمي!

– أظنك "سلمى" الشطورة. أعرف أنك طويلة القامة (طويلة اللسان أيضًا) وفي إمكانك إدارة المفتاح. أعدك

بأنني سأشتري لك مع اللعبة فستانًا جميلاً.

- عندي الكثير منها. لعب وفساتين... فساتين ولعب... ومن كل محلات المدينة وطبعًا شطارتي في خفَّتي!

- لكن السرقة حرام يا بنتي! وإدارة المفاتيح المنسية بالأقفال حرام. القطار سيرحل بعد دقائق. حرام عليكم يا صغاري! أنا رهن إشارتكم جميعًا اطلبوا ما تشاءون.

- نريد... نريد... نعمممممم... نريد أبًا وأمًا!

- الأغصان لا تثمر آباء وأمهات يا أولاد الـــ.....! اسمع يا "ابن كريمة"، ربما نجحت في استغفال بواب عمارتنا العجوز لكنك لن تفلت من قبضة بواب المبنى المجاور... لدي رقم هاتفه المحمول وسأخبره الآن بما فعلته وعصابتك!

استعمر الصمت قلب الشلة لبرهة قصيرة وكأنني استحضرت غولاً في وسطهم، تنحنح أحدهم بصعوبة فتخيَّلت وجوههم شاحبة مصفرة لكأن بواب المبنى المجاور

رفع عليهم غضب طلعته فنضجوا قبل الأوان ، وكطلقة مدفع متهالك اندفعت المجموعة بلهوجة في سباق مجنون عبر سلالم العمارة. كانوا يتدحرجون على الدرجات مثل حبات سبحة انسلَّت من خيطها وسمعتُ صوت ارتطامهم ببعضهم البعض وتكدّسهم في صدر فسحة الدور الثالث قبل أن يستأنفوا انحدارهم إلى الثاني.

بكَّتني ضميري على الورقة الحمراء البغيضة التي أشهرتها في وجوههم، إذ ليس من رجل عاقل يستنجد ببوَّاب مشكوك في ميولاته الجنسية ، وفوَّحت قصص تحرشاته بالأطفال في أرجاء الحي ، لكن حاجتي الملحَّة للخروج من شبكة شقاوتهم أوقعتني في المحظور دون تقدير للنتائج.

من ابتدع فكرة اليد الواحدة التي لا تصفق ؟ انبثق هذا السؤال من جديد من رغوة أفكاري المتلاطمة وعلى سطح فقاعاتها الرقيقة تراءت لي عشرات الأيادي المرتعشة وهي تستنجد وتستعطي اليد الثانية التي بها وحدها ستصفق. أي هدير كان سيحدث لو استنجد غريق بغريق ؟ وفي زحمة

الأيادي واختلاطها عنَّت لي يدي الآثمة المتواطئة وهي تقبِّل باطن يد بواب المبنى المجاور مصفقة لسقوط "سلمى" وجرح "ابن كريمة" وانكسار القلوب البريئة، كم يتيمًا دُحرج من علٍ أيتها الأيادي المرتعشة المتواطئة؟

صدى انحدار الشلَّة ما زال يرتطم بحافة قحف رأسي وأنا خلف باب الشقة أقف مذهولاً من الأحداث التي انهالت عليَّ في لحظة. صفعتني حقيقة فشلي في بلوغ المحطة واستقلال القطار، أرخيت ربطة عنقي ووضعت محفظتي على منضدة قريبة. حاولت تجاهل المجموعة الهاربة لكن أنفاسهم اللاهثة كانت تطرق باب شقتي بقوة كمن يطلب اللجوء والحماية. ابتسمت في سخرية ثم دندنت في سرِّي: خذني معك خذني معك يا سائق القطار... خذني إلى سهولنا ومرَّ حول بيتنا... يا سائق القطار... يا سائق القطار...

صه ! إني أختنق... نعم أختنق... ابعدي عني يا بروق وارحل يا شبح الدماء الممقوت.

لا أريد جرعة ثالثة من ذاكرة عليلة، لا أريد... لا... لا... لا... من يُصعدني من جُبِّ الهلاك؟ من يحلُّني من رباطات القلق وينتشلني من مياه التهديدات الهادرة؟ من؟ من؟ من؟



قلب سكيب

آه يا أحمد ، كم نحن محبوسون في أجسادنا وعقولنا... إننا دائمًا نعطي الآخرين صفاتنا ، وننظر إليهم من خلال مضيق من آرائنا وتفكيرنا ، نريدهم أن يكونوا "نحن" ما وسعنا ذلك نريد أن نحشرهم في جلودنا ، أن نعطيهم عيوننا كي ينظروا بها ، وأن نلبسهم ماضينا ، وطريقتنا في مواجهة الحياة... ونضعهم داخل أطر يرسمها فهمنا الحالي للزمان والمكان.

غسان كنفاني

كل شيء في عينيه يتلوَّن ، يتلفَّع احتفاء بالجحيم ، عزاؤه الوحيد قدرته على الرؤية بعيون الآخرين ، يشقى ويسعد بنسقه وتنظيمه الخاص للمجال والمحيط الذي ما فتئ يتنفس ويعيش أسئلته الملحَّة. هادئ كعادته ، اجتماعي رغم انتصاره للاستقلالية والتفرُّد ، وعزوفه عن العلاقات

الحميمية، فحتمية الافتراق ما هجرت يومًا ذهنه. إنه لا يخشى موته حزنًا أو كمدًا بقدر ما ترعبه نهاية مجانية، وذكراه التي ستطمر وتخضَّب بالنسيان... من دون شك، الزمن غريمه الوحيد، والبطء في السير في نظره، يصيِّره مثل الغرين.

فكرة الزمن، تمتصها لبعض الوقت شجَّة مطرية... جسده يراقص حزن السماء، سياطها الغاضبة. لا يعدو طلبًا للاختباء، ولا تربكه نظرات الاستغراب وهو يمشي مرحًا، تيَّاهًا، مزهوًا... شاخصًا بعينيه المغسولتين إلى السحاب، يرجوه مزيدًا من التطهير والصفاء. كم ودَّ لو كمَّ الأفواه المشرعة والعيون المحملقة، وصرخ في غير كياسة: ويْكم... أتخشون أسرار السماء، وأنتم لها متبتلون صبح مساء، أم قلتم حسبنا فتاتًا نقتات منه؟ كيف غابت عنكم الآفاق والمدى، وصرتم عبيدًا لجدب وقحط ومسلَّمات حيرى؟ هاهي ذي قطرات الخلاص تغسل قبحي، تجدِّد وجودي المنمَّق. فأرجوكم... أرجوكم رَفْعَ الأبواب...دعوا

العواصف والشمس والأمطار والنجوم ، دعوها تُعرِّي أحزانكم، هلمّوا قبل أن أُصلب بصمتكم!

ما إن يَهْطِل المطر حتى ينخرط في حواراته ومناجاته، وقد يحصل أحيانًا أن يُشغِّل خياله ، فيحرِّك الشفاه المتخشبة ، والعقول الجامدة... يتعزَّى متأملاً نفسه بعيون الآخرين : كم يبدو غريبًا ، بل أحمقا ، وكأن السماء ستشحُّ ولن تعاود البكاء أو الأنين. ما أصغرك يا رجل وأنت تعاند العاصفة هلمَّ واقنع بسويعات من الدفء، فلن تخرق الأرض أو تبلغ الجبال طولا.

كلمات كهذه ، ما ثنت جسده يومًا عن مراقصة المطر. العواصف أيضًا لم تُذللـــه قط ، أو تجبره على الاستسلام لهذر البشر.

عالمه الخاص لا يثير في رأيه الدهشة ، ولا شيء فيه ينضح بالغرابة. إنه فقط يعيش ذاته ، يريد أن يكون هو وليس الآخرين ، أن يقبر أي فعل منمق أو إخفاء مبتذل... "هي ذي طبيعتي المنحسرة ، هوذا حزني وشقائي ، شاهد قبري

المرتقب، وفنائي المحقق... فلم نهرب إلى النفاق والخديعة، ونخشى الحقيقة؟ هلا اعترفنا بوهننا والبؤس الذي يسكننا! لِمَ لا نكون نحن بكل صفاتنا الأزلية!".

عظيمة أسئلته التي تسبق هطول المطر، فإن بدأ استغنى عن الإجابات مكتفيًا بإيقاع ملائكي، منتظم لقطراته، ونظرة شزراء لأكياس آدمية تهاب الضجر. وجهته هذه المرَّة كل الدروب والأزقة الموغلة في الوحل. من دون شك سيشم به جسده وهذه النوافذ الصغيرة، الكئيبة، الموصدة. سيخرُّ لطهارة المطر، ويرجوه الاحتفاظ بوشمه. عار أزقتنا ودروبنا وحتى شوارعنا الرئيسة. ترقُّ السماء لابتهالاته فيعانقه رذاذ خجول عناق النحل لرحيق الزهر. تدبُّ الحياة في الأكياس، تتحرك، تنفض عنها غبن الأيام، وتفتح الأذرع مرحبة بمطر خفيف، ونسمات دافئة، وجوٍّ ربيعي، وطلٍّ وردي. تترجَّى الأكفُّ السماء دوام الحال. تطلب، تتوسَّل، تتضرَّع، فتستجيب السماء لنقيض الدعاء! الرذاذ الرقيق يستحيل مطارق تدك الرؤوس الطرية، خيوط المطر سياطًا تجلد

الظهور المقوَّسة... والبرد يمتص دفئهم الزائل الوقتي، إنهم هاربون من جديد وعاشق المطر يتوسط شارعهم الرئيس، يكركر ويكركر. يتملَّى المشهد بغير دهشة، فقد ملَّ الرؤية بعيونهم، وتعوَّد انسحابهم الذليل، وتكدُّسهم تحت سُدَفِ الدكاكين والمتاجر. يستشيط غضب السماء، يومض البرق، يقصف الرعد، وعاشق المطر يستترل المزيد والمزيد. يتحرك بؤسه ويكبر عذابه، تضنيه وحدته في باحة الطريق، هكذا يُسَيَّجُ وجوده الضروري، لا زمان، لا مكان، ولا وطن يحمي انهياره اليومي. كم ودَّ لو كمَّ الأفواه المشرعة والعيون المحملقة، وصرخ في غير كياسة: ويْكم.. أتخشون أسرار السماء، وأنتم لها متبتلون صبح مساء، أم قلتم حسبنا فتاتًا نقتات منه؟ كيف غابت عنكم الآفاق والمدى، وصرتم عبيدًا لجدب وقحط ومسلَّمات حيرى؟ هاهي ذي قطرات الخلاص تغسل قبحي، تجدِّد وجودي المنمق. فأرجوكم... أرجوكم رَفْع الأبواب... دعوا العواصف والشمس والأمطار والنجوم، دعوها تُعرِّي أحزانكم، هلموا قبل أن

أُصلب بصمتكم!

أزيز الرعد صمَّ أذنيه، ففات أوان التنبيه، كان عناقًا حارًا بين الموت وأخيه، بين حافلة من حديد، وعاشق أيقن نهايته كأي متمرِّد شريد، كفنه السماء والرصيف. جسده هامد، ساكن، مُسَجّى بِسَكْب متواصل. مؤكد يا عاشق المطر، ما انتظرتَ تضميد الجراح أو وقف النزيف. اسمح لي سيدي أن أرى بعينيك: خليق بي شرب دمائك التي يجرفها هذا الغدير... أليس كذلك أيها الأمير؟.



انتظار

– ١ –

ببزّتِهِ الحالكة، كان الليل يرابط عند حافة سريري وجسدي المكدود ينتفض وكأنه مساق إلى مقصلة. مسكين أنا؛ يلازمني الحزن مثل السقم. على أجفاني يطبع ذبولاً وبين أهدابي دموع حجرية. كان الحلم ملاذي، أعوذ به من واقع كله رتابة وملل وانكسار. واليوم صار والواقع شريكين في كل شيء. ما حسبت تهاويل الحلم بسلطان.

- ٢ -

الضباب كان كثيفًا حال دون تموقعي بالمكان ، بالكاد جُسْتُ الطريق بقدمين مسلوبتي النشاط. كان طويلاً ممتدًا والأفق غائب وكأن ريشة فنان أهملته لتمنح للقدر حق تقرير مفاجأة. صديق غير مميز القسمات كان برفقتي. بخطى وئيدة طوينا مسافات واخترقنا فضاءات متعددة حتى لاح لنا من بعيد منزل صغير يتوسّط بيداء موحشة لا تخوم لها. خفّفنا نحوه حتى صار على مسافة خطوتين ثم توقفنا. لم نجسر على اقتحامه ؛ فالسكون والصمت والضوء الخافت أشاع في المكان رهبة لا توصف. بعدها تناهت إلى مسامعنا وشوشة ثم أصوات رفيعة رقيقة فضحكات نسائية عالية تيقّظت لها أجسادنا وتحلّبت لها أفواهنا ، فالتمعت عيوننا كذئاب احترفت الخطية.

- ٣ -

- لِنهتك عِرض هذه الفضيلة ، ولنطرح عنا قيود الحياء والوفاء فسواد الليل رحمة تُربك عيون الرقباء.

- مُقنع كلامك يا صاحبي. لماذا تحضرني الاستقامة في غمرة حلمي؟ أليس الحلم تجاوزًا للواقع؟ لماذا يغيب الكشف في أروع صور التفريغ والإفضاء؟ أمتطي صهوة الحلم والواقع الشبح رديفي؟

- ولكن ، لماذا الحديث عن الإقناع والحضور والغياب؟ لماذا تحمل نفسك على السؤال؟ التعقل اغتيال للحلم. هيا رفيقي تحرَّر من سمت الجد والوقار. دعنا نمجِّد لغة الجسد!

- ٤ -

في خَفْر صبية بدوية تحسستْ قدماي عتبة الباب المقروضة. أفكار وخواطر ملتبسة تقاذفتني مرجئة اندفاعي الشبقي لحظة يسيرة ولّما هممتُ باختراق العتبة تردَّد في داخلي هذه المرة صوت كنفخ بوق القيامة:

– الجسد يمضي وشهوته إن زرعتَ فيه تحصد موتًا فموتًا فموتًا!

تردَّد الصوت في داخلي عنيفًا شاقًا كطعنة حربة مُمِضَّة، فحقيقة الموت تقتل فيَّ كل شجاعة وبطولة. أمامه فقط أحتاج معجزة تسكب فيَّ شروط الحياة والاستمرار!

آنئذ تيقظ وعيي كاملاً ولم يجتذبني دفء المنْزل – الخطيئة ولا حفّزتني ضحكاته الرقيقة المغرية، في المقابل تلفّع جسدي بصقيع ألهب سَوْرَةَ غضب صاحبي فصرخ في وجهي:

– جبااااااااان... ستظل دائمًا جبانًا حتى في حلم!

- نَتِن تفكيرك يا هذا! كيف تحصر البطولة في قطف أجمل وردة وغَصْب أحرِّ قبلة؟ لماذا تُستثمر المرأة في كل لعبة؟ مُرْني وأنا في حمأة الواقع بتحطيم جدار الصمت وإعلان المخفي والمسكوت عنه أو بخلع أقنعة البراءة عن الوجوه المُشَوّهة. آنئذ انعتني بالجبن إن ترددت أو قصَّرت!

لم يحرِّكه ردِّي ولا زعزع مبدأ اللذة عنده من مكان القيادة وكأن حواسه كلها اتفقت وانتصبت لتوقع بالشهوة وتعاقرها أنى وُجِدت. وقبل أن يقتحم المترل طلب مني أن أنتظره عند العتبة. وهكذا بقيتُ وحيدا ينفحني البرد وتحكم وثاقي أصفاد الانتظار.

- ٥ -

يخنقني يشقني الانتظار فلا أتركك، مجبول أنا على الفراغ ومعانقة الأطياف. تتبدَّل اللوحات والأمكنة والمأساة فأبقى صامدًا متحجرًا ثابتًا كحنظلة ولا أهملك. كلَّت قدماي من الوقوف فجلست على مصطبة العتبة مسندًا ظهري على الجدار الهش. الضحكات الفجّة تؤثث الأجواء جهيرة تارة ثم خفيضة تارة أخرى أما رفيقي فقد أصيب بالخرس. بقيت على ذاك الحال أتنسَّم لعنة الرتابة محتفظًا بهبة الانتظار. فبحكم تكيّفي البيئي ما عادت شولات عقارب الساعة تناوشني. أسرع أيها الزمن وأنبئ بالخراب وعن تفاصيل المسيح الدجال وأوراق التين الشاحبة فلا جسد لي الآن ولا حواس تهتز لرؤية العلامات.

أوزيت رأسي عوض ظهري فقط إلى الحائط المتصدع فأوقعني حلمي في شرك نومة جديدة، فغابت كل الأشياء من حولي واستسلمت لدعوة جميلة غريبة.

- ٦ -

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾

﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً. وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

حضرتني هذه الآيات مباشرة بعد انسلالي من الغفوة الثانية ورجوعي من وليمة الدعوة الجميلة الغريبة. رباه كم لبثت هنا ؟ تفحصت يديّ المعروقتين ، شعاب وجهي العميقة وجلده المترهل مصعوقًا من الحيرة. رباه كم لبثت هنا ؟ وقفت بصعوبة لأكتشف أني صرت في عمر أنبياء النصوص الجليلة. ما عدت "منتصب القامة أمشي... مرفوع الهامة أمشي...". لقد أمسيت أيقونة حلم غريب ينتظر مفسرًا أريبًا يزيح الغموض... يعلن الأساسات من جديد ويمسك برأس الخيط العنيد. رباه كم لبثت هنا؟ ورفيقي؟ يقينا ملَّ

ويئس من إيقاظي فرحل. انسلَّ من شبكة الاغفاءة الأولى. يا إلهي كيف سأواجه أمي وإخوتي وأنا خائر النفس والروح؟ هل ستشفع لي تجربة الانتظار؟

وفيما أنا حائر، صفعتني الضحكات المديدة المغرية، فالمنزل ما فتئ يحتفظ بنضارته وخصوبته ودفئه الحريمي، وجسدي في الحقيقة ما يزال هناك راكبًا رأسه، غارقًا في حلول وقتية، يعبُّ من كأس اللذة مستغرقًا في أحلام وردية عديمة القرار. أما روحي المغلوبة فتقعي هنا على المصطبة المتآكلة مشدودة إلى العتبة ككلب وفيٍّ ينفحه البرد وتحكم فمه كِمامة الانتظار.



غـوايـة

حذار أن تمدَّ يدك مصافحًا ، سيحرجك الموقف وتردّها خائبة ، منكَّسة إلى جيبك ، بكلمات مقتضبة ستحيِّيك ، ولأنك كريه أو بدون رائحة ؛ ستحتفظ بمسافة تليق بمقامها...التعالي جزء منها ، وعلّتها مذ تسنَّمتْ مقعدًا أرجوانيًا ، جدك ربما هندس أركانه ! تجاهلها بدورك ، واستعدْ رزانتك.

قبالة المدخل الزجاجي تسمّر ، وتأمل الحياة في المحطة بتلويناتها... شاب يطارح حبيبته الغرام ، تنهّد ملء ذكرياتك ، وقبل أن تلوي عنقك لتصيّد خربشة أخرى ، ينتصب الجسد أمامك ، بالكاد ينعكس... الاكتناز ذاته ، والشموخ نفسه... يستحيل التحقّق بدونك يا قذرًا في عينها ! حافظ على هدوئك والتفت ، دَعْها تُبحر في عينيك ، تتفرّس ، تبحث عن ألق يؤيدها بروح الجلد والصبر ، فلن

تجد غير خواء يصلبها ، يدعوها لحمل خطاياها وإدانة شطحاتها وحبها الوهمي في الجسد، اتركها تبادر بالكلام... فلستَ في ورطة ، لم تقطع عهدًا أو خالفت وعدًا ، ولا تمسّحت طلبًا للغفران ، وقبل أن تنخرط في أي عتاب أو حوار ، شقّ صدرك ، واعصر قلبك ، واستعذ بالعقل من الحب الرجيم!

– دائمًا وكما عهدتك، شارد وكأنك تخط هذيانك.

– أتحية هذه أم إهانة؟

– فقط أستفزك أيها المسافر الوحيد... قالتها في غنج.

– لِمَ كل هذه الصفات وهذه الإنشائية؟

– هكذا كانت حواراتنا بعيدة عن كل تقريرية!

– كانت... و...

– (تقاطعه) وستبقى...

– حقيقة ما عدت أفهم شيئًا ، أكلما شطبتُ ذكرى ، وسلَّمتُ بالنهاية؛ تصرين على البدء؟

- أنا لم أقصد خَلقًا أو بدءًا جديدًا... ما بيننا كائن ومُستأنف... اسمع، أنت بدوني تيهٌ وخراب، جسدٌ نخرته الديدان حتى العظم... تأمل تقاطيع وجهك، وترتيب هندامك، المدخل الزجاجي خلفك إن شككتَ في حكمي.

- (يتجاهل تعليقها) مثلما ألفيتكِ أول مرة؛ مظهرية حتى النخاع!

- لا تنكر أنك أُخذت به كالمسحور... أتذكر عزيزي؟

- أجل... كان بريقًا... صورة لمحتوى أمقته!

- لنتجاوز هذه السلبية... "رائع أن نبحث عن وجه جميل لقبح محقق!" هذه حكمتك، حرِّرها من قضبان أوراقك!

- ....

- تذكَّر حبيبي أجندتي، ترانيمي، تربتي التي حقَّقت من خلالها الانتماء! واذكر حناني ساعة الهجر والعزلة وصدري الذي ساع كبواتك... أتقذف كل هاته الأشياء من ماضينا في وحل النسيان؟... وهدايا أعياد

الميلاد حيث البكاء وصرير الأسنان؟

- ....

- أتذكر عزيزي لقاءنا على الشاطئ الصخري... والنوارس شهود ، والبحر هادئ كعينيك الحالمتين ؟... كنتُ أراقبك من بعيد ، تنتظر سمكة تعلق بالصنارة فعلقت أنا ، عروس البحر... (تكركر)

- ....

- ماذا عليَّ صنعه لمصالحة روحينا ؟ طمرتُ أنوثتي وتنازلت... بل تذلّلت لخاطر حبنا الكبير... فلم تُقم لي وزنًا أو أدنى احترام... أنسيت من أكون ؟ لا تبق متخشبًا ، ساكنًا ، قل شيئًا... تكلم!

استعذ بالعقل من الحب الرجيم ، استعذ به واتركها ترفس... دقيقة جلد وينْزاح الهمّ ، خيرٌ من صَفحٍ يغرقك في الغمّ... البطل قرارات ومواقف ، واختيار للصعب حتى الموت... يا صاحبي ، تأمّل صفحات تاريخك ، واكشف محتوى الصورة الآخذة ، المخدرة ، الزائفة... ابق متخشبًا ،

ساكنًا ، صامتًا... فأقوالنا خطيئة وأفعالنا خبط تثير الغبار بدل التمزيق! لا قدرة لك على المكاشفة والمواجهة؟ قلها ولا تخجل، واترك لي مهمة الفضح والمغامرة... لا مناص من ذلك ولا فكاك ! سأُذكي مشاعرك ، وأبعث ذكرياتك... بعد موتٍ، أحييها... وليكن في الختام قرارك!

عروس البحر كانت هناك... عارية إلا من الأمواج، ترقص مرسلة الشعر ، وتبتسم عن أسنان مرجانية... فأي قدر ساقك إلى هناك؟ أذيع الخبر، ونشر في الصحف والمجلات، عروس البحر عاقرت ربان السفن، تعرَّت، رقصت حتى خبَّ البحر ، وكشَّر عن أمواجه... فتلفَّحت بالشراع ، واعتمدت الدّقل، وضاعت كل السفن العرجاء! قرأتَ الخبر... شككت... فأهملت الجريدة... أأغوتك التجربة أم سلافة الأسنان؟

على الشاطئ الصخري كان اللقاء ، وكان المساء وجهًا حزينًا مُغلفًا بالغموض، في البداية تشاءمت، نكّست رأسك ونظرت بأسف حيث قدميك... فجأة شدّتك النتوءات ،

استبشرت خيرًا ، وختمت بما يشبه الهمس: حبنا مؤسس على الصخر ! عروس البحر أدمنت الصياد البسيط وقفته القصبية، كبَّلتها تجاعيده البارزة وأحلامه المُغيّبة، ربما كانت تتنفس مجدها من خلاله ، أو فقط تعاند كبرياءه ، وتلك العملة النادرة التي ماانفك يتبجح بها ساعة كل دردشة: الكرامة والمبادئ!

ذات مساء والقمر مكتمل سألها:

– من أين لك هاذي اللآلئ وهذا الجسد الممتلئ، والضفائر الموصلة بالذهب؟

انتفضت بين ذراعيه، فكّت ساعديه، وبحركة عصبية أبعدته عنها واختفت. اعتبر غضبها دلال أنثى ، فاختار التوسل والاعتذار... اشترى هدية لكن رفضت استلامها... حاصرها مرّة:

– جئتكِ متوسلاً ، قبَّلتُ يديكِ ، ولو كانت لكِ قدمان لفعلتُ ذلك، فأنتِ تربتي التي أحقق من خلالها الانتماء، فما سبب هذا التمنّع؟

– أسئلتك المتكررة تنوشني...

– أليس لي حقٌّ في السؤال ؟ أنا إنسان أفكِّر ، أبحث ، أتواصل، أستفهم !

– أنت تهمة، جريمة في عُرفنا...

– إذن كيف يكون اتحادنا ونحن بهذا الاختلاف؟

– التنازل حبيبي مفتاح اجتماعنا !

– التنازل؟

إيه... تبدّلت اللهجة، ونُفيت الهدايا ، الأحلام والأماني، ما بقي عهد ولا ثبات في المشاعر دائم ، حان وقت الجدّ ولا بد من التنازل ، وأي تنازل ؟ عروس البحر تقبلك إن رضيت بشرط المبادلة؛ دماغك ، قفتك القصبية ، قوانينك وعاداتك الأرضية ، حتى قوة ساعديك ؛... ففي مملكتك الجديدة ، لن تفيدك في شيء... ستعيش مثلها على الحيتان الصغيرة، ومتى تسمن ويكتنـــز هزالك، تبحث عن طقوس أخرى تلائم جلالك. في البداية ما صدّقتَ حدسك ، وكذّبت ظنونك الملحّة ، قلتَ: علّمني الصيد ألا أفرح

بسمكة ترتعش بين القصبة والنهر ، فكيف أسيء الظن بها من غير أدلة؟ وأقول: هو الحب يضخ في وريد العشاق داء الصّفح !

أخيرًا وعلى حين غرّة ، قررتَ المجابهة... مزقت صفحة الماء الفضية ، وغُصت في مستنقع عروس الوهم... تبيّنت وسبرت الأغوار كما شئت ، لم تصدّق ما خبرته حواسك... عروس البحر كانت هناك ، عارية إلا من القبلات ، ترقص ، وتكركر عن أسنان قانية ، وبقايا الحيتان عالقة بالأنياب ، فأي جحيم ساقك إلى هناك ؟ لماذا وثقت بسحر تينك العينين ؟ وكيف تبادلك الوفاء والعرفان ، قلوب ليست تعيش الحرمان؟

لا سبيل للإجابة ، شَحُبَ الوجه ، واعتقل اللسان ، وانطفأت شموعك المُعَدّة للزفاف ! أمامك الشاطئ الرملي هذه المرة ، تمدّد ، تقلّب ، تمرّغ ، وادفن كابوسك ، فحبّك مؤسس على الرمال !

أنت الآن على رصيف المحطة، أمامك الماضي وانكساراته، البحر، النوارس، البدر، الحيتان الصغيرة، العري وأشياء أخرى... وخلفك مدخل زجاجي، إن فكّرت الهروب، تستقبلك نفس الخيالات، والصور المنعكسة، وذلك الجسد الذي ألهب مرّة أشواقك... عروس البحر قدامك... ما أقسى حرقة الانتظار! وما أشد لهيب ذاك القرار! أتركبان ذات القطار وترحلان، أم تُبعث فيك نخوة الصياد المجرّب، فتمحو نتانة الذل والعار؟ وطأة الموقف تحتدّ، وجبين البطل يتقطّب، وأنا نظيركم... أنتظر قرار الصياد...

اختار صاحبنا أخيرًا الأفق على سلافة الأسنان، إنه يتقوّى بالسواعد المفتولة، بأهازيج البائعات، وهن يجمعن المُهمل من نعناع وبقدونس، قانعات بحصيلة يوم كامل من النواح... خُيّل له السحاب موجًا، وزرقة السماء بحرًا هادئًا، ثم تراءى له الربّ ماشيًا على الماء، فاهتاج صدره وفاضت عيناه... عندئذٍ أعرض بوجهه وسائر جسده عنها، وقبل أن يخنقه الانعكاس، وبضربة محكمة، تهاوى المدخل

الزجاجي... و معه الجسد الممتلئ...

قيّد النَزيف معصمه... ماجت من حوله الأصوات والأنّات... ثم أغمي عليه ، وابتسامة عنيدة تطل من بين شفتيه... ابتسامة من حطَّم وهمه!.



ألبوم صور

يستبدُّ بي الحنين إلى صوت والدي ، وملامحه المتخشبة الصارمة ، فأهرع مستنجدًا بألبوم الصور. انهيار حتمي أقف على حافته من توجسي وطأة الزمن ورحاه التي لا ترحم كلما أمعنتُ في صورة. الأبيض والأسود والبذلة العسكرية تبعث الحياة في الذاكرة الخامدة ، أبي بوقفته الرسمية يضارع مومياء بنظراته الجامدة أو الضائعة... صديق بجانبه يمنح الأرض حياءه وارتباكه ، أتأمّله متجاهلاً أقرب وجه؛ إنه عبد السلام أو بالأحرى "عبد السلام البكاي" ، هكذا يناديه الزملاء في المعسكر ، فلا يغضب أو يتجهم بل يعترف مستسلمًا وبدون مركب نقص. أبي كان يتفكّه بعبد السلام الخجول ، المرتبك خلال مسامراتنا العائلية... نطلق العنان لضحكاتنا وهو يسرد كيف كان الصديق يودّع زوجته البدينة باكيًا من غير اكتراث بالحاضرين... يومها سألت

والدي وأنا أمتطي ظهره في شقاوة: وعلاش تايبكي صاحبك واش مازال صغير؟ يُعدم سؤالي بكركرات مجنونة، فأكتفي بدهشة وصمت واستفهام آخر يداهمني: علاش هما إيضحكوا وعبد السلام يبكي؟

أضيع بين الصور الناضجة إطاراها بفعل الزمن ، الهيار حتمي أقف على عتبته وأنا أبحث عن الوجه الغائب إلى الأبد. الموت تيمة تسرق مني كل رغبة في الحياة وأخواها : الأمل ، الحب ، الرجاء ، البهجة ، الطموح... لا أجد لها مستقرًا في ذاتي حتى لتكاد تتبخر أو تنعدم... أبي واسطة العقد في هذه الصورة ، تنفرج شفتاه عن أسنان ناصعة المرارة... رشيد ، لطيفة ، حسناء ، جميعهم حملقوا في آلة التصوير إلا أنا ، أنا فقط... غرست أظافري الصغيرة بين إيقاعات جلباب والدي ، ودفنت هامتي بين ركبتيه مدبرًا نسخ الذكرى... ما زلت أذكر ذلك اليوم الربيعي... كان الوقت عصرًا حين خرجنا في نزهة مع الوالد... يفعل ذلك كتعويض عن الأشهر التي يقضيها مرابطًا عند الحدود...

يبتاع لنا أغلى الملابس وألذ الحلويات... رشيد ، لطيفة ، حسناء ، جميعهم كانوا يركضون فرحين مغتبطين ، وحدي فقط لا أبرح ظل والدي نظير راحته الضخمة التي تعبث بشعري دون أن تبرحه ، فأحس لذلك شعورًا غريبًا ، تترجمه زفرة عميقة من صدري الصغير... و في النهاية ، نؤرِّخ للنُزهة الحلم بصورة ، أدبرها أنا فقط ، اغتيالاً للذكرى... ساعة عودتنا أحتفظ بنفس صمت وهدوء أبي ، ولولا تعليقات إخوتي بين الفينة والأخرى لخلتنا عائدين من جنازة.

- فوقاش غادي تسارينا أبا عاودتني؟(متى ستأخذنا في نزهة أخرى يا أبي؟)
- حين نرجع مرة أخرى من الصحراء.
- عنداك أبا تنسى الفرماج ودانون وديك الحلوة المزوقة (لا تنس أن تحضر لي الجبن و الحلوى الملونة...)
- اللي بغتوه نجيبوا ليكم... غير قراو مزيان. (سأحضر كل ما تطلبونه لكن واظبوا على المذاكرة...)

جميعهم يطلبون إلا أنا... فقط أطبع قبلة على خد والدي... تخزني لحيته الصغيرة... أتأوّه فيضحك الجميع إلا أنا... أنا فقط... تصفعني رياح الحدود، الرمال تملأ حلقي... تبتلعني الصحراء...

الذكرى مهما كانت جميلة، إن تلج معمعة الماضي، تغدو صريرًا حادًا، لا يغري بالإبحار ساعة الخلوة. ألبوم الصور تحت رحمة أصابعي، تقلب صفحاته البلاستيكية بعصبية، ما يصطخب في داخلي تترجمه الأصابع، أما قسمات وجهي فقد استنفذت كل التعبيرات، عيناي فقط تلتقطان عجلة الزمن التي ما فتئت تدهسني مع كل تلوينات الصور... هذه المرة، أعاني التشتت، مالي طاقة على لـــمّ هذا التشظي... زغاريد يُهدهدها الأثير، عطور ورائحة شواء، موسيقى، رقص وانتشاء... باهتة تفاصيل ذاك العرس البهيج، لكن لا مندوحة من الوجه الغائب حدّ الأجيج... ما كان الفرح فرحنا، ولا العُرس عرسنا... نحن نشارك الآخرين مسرّاتهم، ونُمنِّي غُصّتنا بفرح مستقبلي.

مسكين يا أبي ، ما حسبتَ الثرى يطوي أقدس أحلامك... كم زفاف عائلي انتظرت وانتظرت... ووعد بالراحة بعد التقاعد صدّقت وصدّقت!!

إيه متاع الغرور ، لو تعلمين كم وهم عاشه والدي... كم سُلّم ارتقى بخياله ليعانق أقواس قزح ، لوضعتِ له أولى لبنات "مزار الأحلام المؤجلة".

جلبابُكَ الأبيض أبتاه يخرم رهافة حسي... عِمامتك باستدارتها المُحكمة تطوّق عنقي حد الاختناق ، تحرقني اللحظة... الجلباب يصير إزارًا ، والبنية القوية تستحيل قشة شاحبة ، أما العمامة فعِصابة شُدّت بها رأس على وشك الانفجار... مؤكد رأسك يا ذات القلب الكبير! كل شيء ينقلب حقيقة مطلقة ، لا الفرح فرحنا ولا العرس عرسنا ، احتفالية الصمت والكفن قدرنا ، تالله إن المسرّة تُخدّر الوجدان ! الحزن استوى على الزقاق فامتلأ صياحًا وعويلا... هي ذي الفرصة المتكررة ، فلتقفر العيون من البكاء ، ولتخرج الصدور زفرات متعبة لعشق وهمي ، عطالة

مُمضّة ، طموحات مجهضة ، قهر يومي ، حرمان وبؤس مخفي، فنحن نهيئ الجنازة!

أوهنتني الذكرى وحرقة الموكب ، الصداع شقَّ رأسي ، ما احتملت أصابعي هول اللحظة ، فانفلت الألبوم ليخرَّ تحت قدمي مُجَنْدَلا ، شاهدًا على السقوط... خلّفته حيث تهاوى واستنجدت بالنافذة ، بحاضر كله تنميقات... لا ترقصي يا نفسي فأنا أعيش الزيف فقط ، أمنح جرحي فرصة الالتئام!



أمــي

خسرتُ كُللي مرة أخرى ، لم ألق بالاً لتنبيهات صديقي "محسن" ، فهو أدرى مني بمهارة "ياسين" وقدرته على إصابة كُلَلِ الخصم مهما بعدت ، تكلّفتُ المرح أمام أصدقائي ، وقاومت دمعة كادت تخدش كبريائي حينما رأيته يعدّ كُلَلَهُ بفرح... فجأة ، فضّت "بهيجة" الحلقة وهرول الجميع للتأكد من الخبر... وجدتُ الفرصة مواتية ، تقدمتُ أقراني في سرعة البرق ، تسللت من بين أرجل النسوة ، وما كدت أرى أمي ، حتى حرّرت غصتي وأسبلت دمعي... أبكي هذا الإغماء ، وتلك الخسارة النكراء!

مشهد متكرر... كلوح خشبي خمّرته المياه ، مُدِّد الجسد ، بتفاصيله الذاوية وضموره البيّن. "رقية"؛ العجوز الشمطاء ، سليطة اللسان ، ناقصة الأسنان ، تُحوقل ، تُبسمل ، وتلهج بالدعاء دفعًا للغمِّ والهمِّ والحزن. أمقتها ، بل ترعبني نظراتها

البُعبعية إن شدت تكّة سروالي مزمجرة: تبقى لصيق أمك وتبكي لأنك في حاجة، متى اشتد عودك، تكفكف دمعك وتمضي لحال سبيلك بحثًا عن امرأة! بئس صنفا الرجال!

حقيقة ما كنت ظل أمي أو لصيقها، بيد أني حضرت ظروفها الصعبة فامتلأت من الشجن قبل الأوان. أدركت رغم حداثة سني، أن امرأة أخرى في حياة والدي، سبب تصدعاتنا وانهياراتنا، قالوا زوجة والبعض عشيقة، لكن التذبذب لم يمنع الإغماءات وارتفاع الضغط، ووجع الرأس، وامتلائي من الشجن... أيضًا ما زحزح إيماني بحبهما الكبير... رأيته يومًا يقبّلها راجيًا، يهرق العطر ويمسّد رجليها، علّها تسترد وعيها الغائب، كان يدمع في توسل حتى شككت في أمر تلك الميتة المؤقتة وظننتها نهائية. أفاقت أمي، تنشقتْ نسيم الحياة ومعه الكدح والعذاب المرتقب.

الزمن دائمًا يدحرجنا بلا هوادة نحو كمائن الكبر في النهاية... خشن صوتي وغطّى الشعر جسمي، واهتاج صدري ساعة كل كبوة... مات أبي فأمست قصة الزوجة

الثانية ذكرى أو نكتة للتسلية...

أماه... هو ذا العمر يجري ، يُنهي دورته الضرورية لبداية جديدة... مؤكد سيخلّف غضونًا تخدش هالة عينيك ؛ أقصد حفرتيك الداكنتين ! ماذا جنيت من الإغماءات ، وكمّ الفم، وكظم قروح القلب وأسراره؟! ماذا لو خرقت حاجزك الوهمي، لو حطّمت حاجز الصمت والجبن؟ لست ضحية الزمن الغادر ، لعمري هو الخوف أماه... إنه سرّ دونيتنا وانهزامنا في جل المعارك ، حتى مع ذواتنا... الحق أقول لك : أحترم شجاعة أبي ، كان يؤمن بإرادته فقط ، حتى وهو يتوكأ بعصاه واقفًا، يتقوّى باسم والديه... متفرد في قراراته لدرجة التعصب... إنه بطل من نوع آخر!

– و لا مرة رأيتك تصلي أبتاه... ألست تخشى عقاب الله؟

– أنا لا أهاب أحدًا.

– ولكن الله ليس أي أحد... فهو خالقنا... و...!

– وربنا وشافينا... أعرف هذه الأمور جميعها... غير أني أرفض صلاة أو أي فعل آخر تقوده الرهبة والخوف...

وحدنا نملك اختيار سبلنا عن قناعة وليس عن خوف!

هكذا كان أبي بمزاجه الخاص ومراسه الحاد، ودأبه المتواصل في سبيل راحته. أما أنتِ فضائعة، ذائبة في أحلام الآخرين، ربما ما كنتِ أبدًا !! كان وكُنا وكنتِ الكلمة التي ما صارت جسدا! والظلام يخطف النور ويرهن ألقه... والنور لا يقوى عليه!

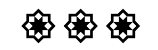
أماه... مرفأ عينيكِ لفّه الضباب، واحتوته الحلكة، العتمة، الظُلمة... كل السفن هجرته، أبحرت حيث الحياة، الأضواء، الأنوار والأبواب الواسعة، لكن سيظل قاربي الصغير وفيًا، يمخر سواد حفرتيك، يشق أصعب الطرق، وأضيق الأبواب، يرسو في مرفأ عينيك، وينشِق حصاد انهياراتك وإغماءاتك المستأنفة: العمى!

أماه... كدماتك ما فتئت تجدِّد حقدي، كرهي للأشياء، بين حاجبيك غرس الفرن زواياه، وأصابع قدميك قُرِضَت وهي تتلمَّس السبيل مُتعثرة بالأعتاب، وهل أنسى المائدة ساعة أسقطتك؟ لا يا أمي... أي ندب، أي أثر خلَّفه

العمى، يذكي عطشي للسؤال!

أماه... عذرًا إن أثار موكبي غبار أيامك الخالية الباقية، الماضية الحاضرة، أو رفعت اللثام عن بعض أسرارك... حسنًا، لن أنكأ جراحك القديمة، قسرًا أرفع قلمي، ثم أفجِّر السؤال: إلى متى نظل سدنة الرمز، خُدَّام الظلام وعبيد الأسطورة؟ أكان قدرنا العمى أم هو الخوف سر مأساتنا العظيمة؟





المؤلف في سطور

- **حسن شوتام**
- **قاص ومسرحي مغربي**
- **نشرت له العديد من القصص القصيرة منذ المرحلة الثانوية في جرائد وطنية وعربية مختلفة ، بالإضافة إلى مواقع إلكترونية ثقافية أدبية و فكرية**
- **صدر له :**

- السبت الحزين : قصص وخواطر. مطابع أمبريال ، الرباط ٢٠٠١م

- خارج المبنى : مسرح. شمس للنشر و الإعلام ، القاهرة ٢٠١٥م

- لهيب الثلج : مجموعة قصصية. شمس للنشر و الإعلام ، القاهرة ٢٠١٨م

- **البريد الإلكتروني : choutamhassan@gmail.com**

الفهرس

- قبل القَص ٥

١. لهيب الثلج ٧

٢. خيالات ١٧

٣. نافذة الإغاثة ٢٧

٤. القطار ٣٧

٥. قلب سكيب ٥١

٦. انتظار ٥٧

٧. غواية ٥٦

٨. ألبوم صور ٧٥

٩. أمي ٨١



Tel :(+2) 01288890065

www.shams-group.net